كلمات روحية للحياة

الجزء الثالث

القمص لوقا سيداروس

مقدمـــة

بِاسِمِ الآبِ والابنِ والَرُوحِ القَدَس إِلَهُ وَاحِدُ آمِين

~~~~~~~

خبز كل يـوم

تعودنا أن ندرس كلمة الله ونتغذى عليها كل يوم. وكمثل المن النازل من السماء الذى عال به الرب الشعب أربعين سنة، هى مدة غربتهم، حتى وصلوا إلى أرض الميعاد، هكذا تكون كلمة الله تُشبع وتُغنى الساعين نحو الوطن الأفضل.

وهى كما كان المن – جديدة متجددة كل صباح. ويلتقط الواحد منها ما يكفيه لسعى يوم بيوم. ولا يكفى ما التقطه بالأمس لمواجهة احتياجات اليوم.

وأيضاً كما اختبر الآباء الأولون كيف يأكلون الكلمة.. إذ أعطاهم الرب هذه النعمة كما فعل حزقيال وإرميا وداود وغيرهم. اختبروا مذاقة الكلمة وحلاوتها، وأيضاً مُرَّها فى الباطن وتبكيتها الشديد. ثم طعمها الذى كالعسل حلاوة.

وفى عهد النعمة قال القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس مشجعاً إياه على اللهج فى ناموس الرب، أن يواظب على القراءة والدرس.. يأكل الكلمة ويُعلِّمها ويستأمن أُناس أكفاء يعطيهم مما تحصَّل عليه من النعمة بواسطة الإنجيل ليُعلِّموا آخرين أيضاً.

لذلك وجدنا أن نشجع شعبنا على القراءة اليومية والدرس الروحى العميق لكلمة الله، بدون فلسفة أو جدل.. لكى تتحول الكلمة إلى طعام روحى وخبز كل يوم، الذى لا يستغنى عنه السائر فى الطريق.
~~~~~~~

ويتبع التأمل الروحى العميق للكلمة تطبيقها فى الحياة اليومية إذ تكون النفس قد تشبعت بروح الإنجيل وتأدبت بكلام الحياة الأبدية، فلم تعد تصدر عنها أفعال إلا المضبوطة بفعل الكلمة. لأن الأعمال هى الترجمة الحقيقية للإيمان.. «لأَنَّ الإِيمَانَ بِدُونِ أَعْمَال مَيِّتٌ» (يع ٢ : ٢٠).

لذلك نحن نقدم عينة تصلح أن تكون بداية لتدريب النفس على الانحياز لكلمة الله والتلمذة للإنجيل، بعيداً عن فلسفة الكلام وحكمة العقل البشرى، ومماحكات الكلام.. فنحن نؤمن أن الإنجيل هو الحياة.

فالكلمة فعلاً «حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ» (عب ٤ : ١٢). وليبارك المسيح إلهنا فى كل كلمة لمنفعتنا وخلاص نفوسنا.

القمص لوقا سيداروس (استشهاد القديس أبى سيفين – ديسمبر ٢٠١٩)

كلمات روحية للحياة

الجزء الثالث

فهرست

١- لست أريد أن تجهلوا

٢- لا تهتموا للغد

٣- أدرِّب نفسى

٤- مثل حبة الخردل

٥- مثل البذار

٦- مثل وكيل الظلم

٧- مثل الغنى ولعازر

٨- مثل عرس ابن الملك

٩- مهمة رئيس الملائكة ميخائيل

١٠- المعطى فبسخاء

١١- شفاعة السيدة العذراء والقديسين

١٢- إنجيل المرأة الخاطئة

١٣- الضمير المسيحى

لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا

١- «فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا أَنَّ آبَاءَنَا جَمِيعَهُمْ كَانُوا تَحْتَ السَّحَابَةِ، وَجَمِيعَهُمُ اجْتَازُوا فِي الْبَحْرِ، وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ» (١كو ١٠ : ١).

٢- «وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا» (١كو ١٢ : ١).

٣ - «لاَ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ الرَّاقِدِينَ، لِكَيْ لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ» (١تس ٤ : ١٣).

٤ - «فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا هذَا السِّرَّ، لِئَلاَّ تَكُونُوا عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ حُكَمَاءَ. أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لإِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مِلْؤُ الأُمَمِ» (رو ١١ : ٢٥).

٥ - «لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّنِي مِرَارًا كَثِيرَةً قَصَدْتُ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ، وَمُنِعْتُ حَتَّى الآنَ، لِيَكُونَ لِي ثَمَرٌ فِيكُمْ» (رو ١ : ١٣).

أولاً: حذر القديس بولس الأخوة من الجهل بهذه الأمور الخمسة. وحذر أيضاً من نتائج هذا الجهل بهذه الأمور. فالواجب يُحتّم على كل إنسان مسيحى أن يكون على علم واستنارة، ويمحو الجهل بالتعليم والتبصُّر فى هذه الأمور، ومن دراسة روحية جادة لكلمة الله وتقليد الآباء الذين علمونا وسلمونا.

حذر القديس بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، الأصحاح العاشر، من الجهل بالمكتوب فى الكتب المقدسة فى العهد القديم «لأَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ فَكُتِبَ كُتِبَ لأَجْلِ تَعْلِيمِنَا»، (رو ١٥ : ٤)، وكذلك بطرس الرسول «لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (٢بط ١ : ٢١).

وكل الأحداث فى كل الأزمنة ومعاملات الله، وتدبيره من أجل الخلاص، كل هذا مُتَضمَّن فى المكتوب. وكل مواعيد الله وكل رموز الخلاص وكل فكر الله تحويه الكتب المقدسة.

فماذا إذا جهل الإنسان كل ذلك؟ يكون كأنه يُهمل الخلاص الذى تنبأ عنه الآباء والأنبياء، وكشفوا للمؤمن كنوز العهد القديم، وأسهبوا فى التأمل فى الأحداث والأشخاص مثل: إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود.. وتركوا تراثهم الذى تعتز به الكنيسة محفوظاً فى خزائنها إلى يوم مجئ الرب.

فماذا إذا كان أحد يجهل كل هذا؟ ويكفى أن نقرأ مطلع الرسالة إلى أهل رومية: «بُولُسُ، عَبْدٌ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْمَدْعُوُّ رَسُولاً، الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ، الَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ، عَنِ ابْنِهِ. الَّذِي صَارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ...» أو ما كتبه الإنجيليون عن عمل الخلاص الذى صنعه الرب بتجسده وخدمته وصلبه وقيامته، وكيف كرروا القول «كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ... لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ فِي الأَنْبِيَاءِ».

ليكن هذا الدرس نافعاً لحياتنا وخلاص أنفسنا. لذلك يجب أن ندرس العهد القديم، ليس مجرد دراسة عقلانية أو تحليل ودراسة شخصيات أو تاريخ أناس وأحداث. بل لاستلهام الروح وإدراك الكتب المقدسة التى تُحَكِّم الإنسان للخلاص كقول الرسول.

والعينة التى اختارها الرسول بولس فى هذه الآيات، هى عمل الله العظيم فى خلاص شعبه من العبودية القاسية فى أرض مصر. فلما سلَّط القديس بولس نور وجه يسوع على القديم، لمع ببريق يخطف الأبصار. فلما أنار على الظل انكشف العمل الإلهى من وراء الدهور، فالسحابة التى ظللت على الشعب العابر البحر الأحمر، مع سور الماء من اليمين واليسار، كانت بمثابة المعمودية المقدسة التى فصلت بين العبودية والحرية، وبين أرض الغربة وأرض الميعاد.

جميعهم اعتمدوا لموسى. وجميعهم أكلوا طعاماً، هو المن.. ولكن تحت نور وجه يسوع، عرفنا أن المن كان طعاماً روحياً نازلاً من السماء.. وفى شخص المسيح يسوع تجسد المعنى الروحى فى كماله المطلق، عندما قال الرب: «آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا... أنا هُوَ الْخُبْزُ (المن) النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ» (يو ٦ : ٤٨ – ٥١).. هو المن الحقيقى وخبز الحياة.

«وَجَمِيعَهُمْ شَرِبُوا... مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَابِعَتِهِمْ، وَالصَّخْرَةُ كَانَتِ الْمَسِيحَ» (١كو ١٠ : ٤). بالطبع لم يدرك أحد هذا المعنى أو الحق المخفى فى الظل، كما قيل «شِبْهَ السَّمَاوِيَّاتِ وَظِلَّهَا» (عب

٨ : ٥). ولكن عندما تكلم القديس بالروح بحسب درايته بسر المسيح، أنار التدبير الإلهى الذى يعجز البشر عن إدراكه.

على هذا النحو قرأت الكنيسة العهد القديم، وسار آباء الكنيسة العظام: مثل القديس كيرلس الكبير، والقديس اثناسيوس الرسولى، وآباء البرية العظام: أنطونيوس ومكاريوس، ساروا على نفس الدرب.

ثانياً: أما من جهة الراقدين بالرب، فكان الأمر مختلطاً على المؤمنين فى البداية، وكانوا فى احتياج إلى المعرفة الحقيقية المستمدة من الإيمان بالمسيح، فقد كانوا فى لهفة الانتظار لمجئ المسيح الثانى وظهوره المخوف والمملوء مجداً، حتى أنهم كانوا يتوقعونه كل يوم.

وقد كتب لهم الرسول «أَنَّهُ لاَ يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً» (٢تس ٢ : ٣). وكانوا يتساءلون فيما بينهم: ماذا عن النفوس التى رقدت فى أيامهم قبل مجئ الرب؟ فأراد أن يوضح لهم حقيقة الأمر، لكى لا يحزنوا على الذين رقدوا فى الرب، حزن غير المؤمنين الذين ليس لهم رجاء القيامة. وهكذا شرح لهم أنهم أعضاء جسد المسيح، وهم الآن ينتظرون مجد ظهوره، وفى مجيئه الثانى سيُحضرهم الرب معه، فهم وإن سبقونا ولكنهم فى المسيح يحيون وعلى رجاء القيامة رقدوا.

ومن جهة القيامة، فإن قيامة ربنا يسوع من الأموات وكسره شوكة الموت، هى الركيزة التى نتمسك بها. فإن كان المسيح قد قام من الأموات بقوة واقتدار، فإن الراقدين فى يسوع سيقومون بقيامته.

وقد كتب القديس بولس لأهل رومية عن روح القيامة، الذى نلناه قائلاً: «وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ» (٨ : ١١). هكذا نبّه القديس بولس المؤمنين أن لا يجهلوا هذا الأمر. لأن بدون هذا الرجاء، يصير الإنسان فى رعبة الموت وفقدان الأمل، ويحسب أن الموت هو النهاية الأسيفة، ويحزن ولا عزاء.

ثالثاً: أما من جهة أن لا يجهلوا «أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لإِسْرَائِيلَ» (رو ١١ : ٢٥)، فقد كان الذين آمنوا بالمسيح من الوثنيين بدأوا فى الافتخار، وشعروا بأنهم أفضل.. فهم قبلوا الإيمان

بالمسيح وأطاعوه وأحبوه وقبلوا نعمة التبنى.. الخ. فأراد القديس بولس أن يحذرهم ويكشف لهم الحق.. أن القساوة من اليهود التى يرونها الآن، هى جزئية محصورة فى الزمن. وقد أوضح لهم الخطة الإلهية لخلاص اليهود والأمم كليهما، وقد أوضح ذلك كثيراً بالشرح.. أن اليهود «لَهُمُ الْعُهُودُ وَالاشْتِرَاعُ... وَمِنْهُمُ الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ» (رو ٩ : ٤ ، ٥).

فإن كانت قد قُطعت بعض الأغصان من الزيتونة الأصلية، لسبب عدم الإيمان، و«أَنْتَ (يقصد المسيحى الذى كان وثنياً) قَدْ قُطِعْتَ مِنَ الزَّيْتُونَةِ الْبَرِّيَّةِ، وَطُعِّمْتَ بِخِلاَفِ الطَّبِيعَةِ فِي زَيْتُونَةٍ جَيِّدَةٍ (الزيتونة الأصلية)... فَلاَ تَفْتَخِرْ عَلَى الأَغْصَانِ» (رو ١١ : ١٧ – ٢٨). هم لسبب عدم الإيمان قُطعوا وأنت بالإيمان ثَبَتّ، وهم إن لم يثبتوا فى عدم الإيمان فإنهم يُطعّمون.

الأمر إذن ينحصر فى الثبات فى الكرمة الحقيقية.. «كُلُّ غُصْنٍ يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ» (يو ١٥ : ٢).. وكل غصن لا يأتى بثمر يُقطع. إذن الجهل بهذا الأمر جعلهم يصيرون حكماء عند أنفسهم، ويقنعون بأفكار ليست من الله، تدفعهم إلى الكبرياء. وهذا ضد روح المسيح.

رابعاً: «أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ... فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا. أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أُمَمًا مُنْقَادِينَ إِلَى الأَوْثَانِ الْبُكْمِ، كَمَا كُنْتُمْ تُسَاقُونَ» (١كو ١٢ : ١ ، ٢).

فالأمر جد خطير، فقد انبهر هؤلاء المؤمنون الجدد بالآيات والعجائب والتكلم بالألسنة، وقد شغلهم هذا الأمر حتى صاروا يتسابقون، فيمن هو الأعظم، ومن يتكلم بألسنة أكثر من الآخر، حتى صارت اجتماعاتهم كغوغاء من كثرة المتكلمين بألسنة، وكان بعضهم على حق من جهة هذه الموهبة، أما كثيرون فكانوا مُدّعين، وقد طغى عليهم إنسانهم العتيق مع بقايا عبادات الأوثان.

وقد سمع القديس بولس عن البعض من مُدّعى التكلم بالألسنة إنه يقول «يَسُوعُ أَنَاثِيمَا» (١كو ١٢ : ٣)، ويبدو من الحديث أنهم لم يكونوا على معرفة بقوة اللغة، بل كانوا ينطقون بلا فهم. لذلك حذرهم القديس بولس وأرادهم أن لا يجهلوا من جهة المواهب. وأوضح بالروح وبالتفصيل أن المواهب ليست للافتخار أو التباهى والرجوع إلى الذات.

ولكن المواهب الحقيقية يعطيها الروح القدس للكنيسة لبنيان المؤمنين.. وأن الموهبة الحقيقية تُعطى للإنسان ليس لأجل ذاته، ولكن الروح يقسِّم لكل واحد كما يشاء. وأن الكنيسة هى جسد واحد، وأننا أعضاء فى الجسد الواحد، وإن كُرِّم أحد الأعضاء فللباقين، ولا يستغنى الجسد عن أقل أعضائه، ولا يقل عضو فى الجسد لباقى الأعضاء: «لاَ حَاجَةَ لِي إِلَيْكِ» (١كو ١٢ : ٢١)، ولا يفتخر أحد بما نال من المواهب من الروح القدس كأنه الأفضل.

فالعين وإن كانت وظيفتها الإبصار، والأذن للسمع.. فما تقوم به العين يختلف عما تؤديه الأذن. ولكن بالنهاية كلها موضوعة فى الجسد بانسجام للخدمة وللتآلف.. فليس أحد يحيا لنفسه ولكن حياته فى الجسد وبالجسد وللجسد. فلا يتصور أحد أن العين قائمة بمفردها بعيداً عن الجسد، فهى فى هذه الحالة كعضو منفصل عن الجسد تصير بلا قيمة وبلا منفعة.

هكذا شرح الرسول على ضوء ذلك طبيعة الكنيسة كجسد المسيح، وأن المؤمنين وإن كانوا أفراداً ولكنهم بالأكثر أعضاء فى الجسد الواحد يحيون بالروح الواحد. فالحياة تسرى فى جميع الأعضاء، وهذه الحياة هى بالروح القدس الكائن فى جميع المؤمنين وبلا تفريق. فإن اختلفت المواهب لكن الروح واحد وهو المصدر الوحيد.

خامساً: وأخيراً صحح الرسول كل هذه المفاهيم من جهة المواهب فى الكنيسة، ثم وجههم إلى ما هو أعظم من كل المواهب، وهو تكميل المحبة المسيحية لأنه إن كان أحد قد حاز كل الإيمان حتى ينقل الجبال وليس له محبة فهو ليس بشئ.

إلى آخر ما كتبه للكنيسة مؤكداً أن المحبة هى العصب، وهى الرباط الذى به تقوم الكنيسة. وتوّج حديثه الملهم بأن الإيمان سيبطل، أما المحبة فلا تسقط أبداً.

وفى كل أجيال الكنيسة شغل هذا الأمر الكثيرين واستهوى الكثيرين من جهة المواهب والمعجزات، وانجرف فى هذا التيار كل من جهل كلام القديس بولس. أما من استنارت عقولهم بالكلام الإلهى فقد ثبتوا فى المحبة ومارسوها مدى الحياة، وفاقت حياتهم حتى أصحاب المعجزات.

+ أما عن التدبير الإلهى فى خدمة الرسول وحركته وأسفاره والأماكن التى يقصدها ومدة وجوده فيها. فلا يتخيل أحد أنه مُنقاد بمقاصد بشرية أو خطة إنسانية، فمادام هو رسول يسوع المسيح، ومنقاد بالروح القدس فحيثما أرسله الروح يذهب وحيثما وجهه يتجه. فمرات منعه الروح أن يتكلم، ومرات أخرى قال له الروح: «لاَ تَخَفْ، بَلْ تَكَلَّمْ وَلاَ تَسْكُتْ، لأَنَّ لِي شَعْبًا كَثِيرًا فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ» (أع ١٨ : ٩ ، ١٠). ومرات قصد أن يذهب إلى مكان، ولكنه أُعيق عن رغبته، لأن الروح كان له تدبير آخر وقصد آخر من جهة الرسول نفسه ومن جهة المخدومين أيضاً.

لذلك أوضح الرسول هذا الأمر قائلاً: «لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّنِي مِرَارًا كَثِيرَةً قَصَدْتُ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ» (رو ١ ١٣)، ولكن كان فى تدبير الروح أن غياب الرسول عنهم فى تلك الفترات، قد يثمر الروح فيهم أكثر، إذ يعمل فيهم باجتهاد فى حفظ وصايا الرب، وممارسة الأعمال الروحية. وكأنّ الروح كان بالنسبة لهم كأم تعلم ابنها المشى وبينما لا يريد الابن أن يترك يد أمه وينتصب واقفاً، ولكنها لمنفعته تتركه وأحياناً يسقط ويبكى، ولكن هذا التخلى الوقتى يصير بالنهاية للمنفعة.

وهذا الإدراك عند المؤمنين يجعلهم ينمون فى النعمة والقامة، وإن كان يفطمهم من حضور القديس بولس إلى حين. والجهل بهذه الحقيقة الإلهية يربك المؤمنين ويجعلهم فى حيرة، وربما تعلقهم يصير كشبه مرض، أو كطفل لا يريد أن ينسلخ من الطفولة إلى طور الرجولة فى الروح.

فى الختام نقول: ما أفدح الخسارة التى تصيب المؤمن والكنيسة من الجهل! وتأتى الكلمات الخمس كأنها بوق إنذار لجميع الكنائس، وطبعاً تنطبق على كل أنواع الجهل.. لأنه قيل: «قَدْ هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ» (هو ٤ : ٦). وليست المعرفة العقلانية التى شاعت فى هذه الأيام الأخيرة، بل الجهل الروحى فى التوصل إلى الحق والتمتع به.

انظر كمّ الجهل بعمل الروح فى الأسرار.. تأمل وتعجب! وانظر كمّ الجهل فيما يُمارس من عبادات ورغم الحضور الكثير والمتواتر ولكن اسأل عن الممارسات ومدى الثمر.. سيصيبك الدهش!

كنت أزور كثيراً من البيوت وأدفع الإنجيل إلى رب البيت ليقرأ.. وقد قابلت كثيراً من المفارقات فالبعض عنده حاسة تذوق الإنجيل والانفعال به والخضوع له.. بينما وجدت كثيرين كأنهم لا يعرفون

القراءة رغم علمهم، وكأن الإنجيل طلاسم لا تُفهم، فيقرأ الإنسان ولا يعى. وقد يبدو هذا جلياً من الذين يقرأون الفصول الكنسية فى القداس الإلهى.

عموماً، نرجو أن ينير الروح ذهننا ويمحو جهلنا وضعف معرفتنا.

«لاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ»

قال ربنا يسوع هذا القول الإلهى ليرفع عنا ثقل ونير الهم.

أولاً: لأنه مهتم بمستقبلنا، ليس للغد فقط، بل بمستقبلنا الأبدى، فإن كان الأمر كذلك وقد وضعنا الغد فى يده، فما أسعده غد! كثيراً ما نضع أمراً يخصنا فى عهدة إنسان كبير أو حكيم أو صاحب سلطان من أى نوع. ونطمئن أن هذا الموضوع صار فى عنايته ونحن نثق فيه.. فكم بالأولى إذا سمعنا أن أبانا السماوى مهتم بنا ويرعى حياتنا بعنايته الفائقة.

لقد عرَّفنا الرب يسوع على الآب، وقال: «مَتَى صَلَّيْتُمْ فَقُولُوا أَبَانَا» (لو ١١ : ٢)، وقال: «الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ» (يو ١٦ : ٢٧)، ومن جهة الاحتياجات قال: «لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ» (مت ٦ : ٨).. وقال: «فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ (وأنتم أباء) تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (مت ٧ : ١١). ولكشف الأمر بأكثر عمق قال: «حَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ» (مت ١٠ : ٣٠). وليس فى الأمر تشبيه ولا مغالاة، فقول المسيح هو الحق كل الحق.

فتفكر يا أخى أن عناية الآب السماوى تشمل حياتك، الأمور الكبيرة والصغيرة معاً.. حتى شعر رأسك معدود، واحدة منه لا تسقط بدون إذن أبيك.

أتذكر لما أصيب أبونا بيشوى كامل بمرض السرطان وبدأ العلاج الكيماوى، تساقط شعر رأسه ولحيته، فلما رأى أنچيل زوجته منزعجة، قال لها: ألا تعلمين أن كل شعرة سقطت بإذن الآب.

ثانياً: الغد بالنسبة لأى إنسان مجهول.. قال الرسول يعقوب: «أَنْتُمُ الَّذِينَ لاَ تَعْرِفُونَ أَمْرَ الْغَدِ» (يع ٤ : ١٤). فماذا ينفع إن كان الإنسان (يعول) الهم من جهة الغد؟ هل يغير هذا شيئاً؟

أما أبونا السماوى فهو غير الزمنى ليس عنده ماض ولا مستقبل، بل الكل مكشوف ومعروف، ليس شئ مخفياً أو مجهولاً. قال الحكيم: «الْغَمُّ (الهم) فِي قَلْبِ الرَّجُلِ يُحْنِيهِ» (أم ١٢ : ٢٥) وهذا حق. الإنسان (عوّال) الهموم، كثير الأوجاع وكثير الأمراض، ليس من جهة الجسد فقط، بل الهموم تجعل نفسه فى اضطراب وخوف وتوجس، تُرى ماذا يخبئ الزمن.

وهذا ضد الثقة والإيمان فى الله مدبر أمورنا. إن حياة الاتكال على الله مريحة، تملأ النفس سلاماً وطمأنينة «أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ هَمَّكَ فَهُوَ يَعُولُكَ» (مز ٥٥ : ٢٢)، «وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟» (مت ٦ : ٢٧).

قال لنا ربنا: «اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا... تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو... إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا» (مت ٦ : ٢٦ – ٣٠).

لنا فى حياة آبائنا القديسين الذين ألقوا رجاءهم بالتمام على الله، أعظم دروس الإيمان والثقة بالله والاتكال عليه وحده. لقد عال الذين سكنوا الجبال والمغائر وشقوق الأرض. واعتنى بالذين ساحوا (طافوا) جائلين فى جلود غنم وجلود مِعزى، مكروبين ومُذلين.. وفى الواقع «لَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ مُسْتَحِقًّا لَهُمْ» (عب ١١ : ٣٨).

ثالثاً: قد تتوقع بحسب فكرك أنك ستواجه مشاكل أو أموراً صعبة أو أشياء مخيفة.. وتظل مهموماً قلقاً وقد تأتى الأمور على غير توقع.

كنت أقرأ فى سفر التكوين عن يعقوب أب الآباء، لما ترك خاله لابان وقصد أن يرجع.. وكان الخوف كل الخوف من أخيه عيسو. لقد صارت قطيعة بينهما أكثر من عشرين عاماً.. وقتها هرب يعقوب من وجه عيسو لأن عيسو كان مفتكراً أن يقتله. وقد ملك الخوف على يعقوب وصار يتفكر عسى ماذا سيحدث، وصار مهموماً وطار نومه.. وصارعه إنسان حتى الفجر. ولما اقترب من المكان قال: استرضى وجه أخى بالهدية.. فعمل قطعان صغيرة من الغنم والبقر.. وجعلها تسير أمامه وأوصى الغلمان أن يقولوا: هذه هدية لعيسو. وكان عيسو قد جهز نفسه للقاء أخيه، ومعه أربعمائة رجل، وهذا ألقى الرعب بالأكثر فى قلب يعقوب. ثم من كثرة الخوف أيضاً رتب بمكر أملاكه وأسرته.. جاعلاً الخادمات وأولادهن أولاً.. ثم ليئة وأولادها.. وأخيراً راحيل وابنها.. وكأنه يقول إن أصابه الشر.. فأبقى المحبوبة آخر الكل.

ولكن للعجب العجاب كانت كل هذه التهيؤات وهذا الهم القاتل مجرد نتاج الفكر البشرى، الذى إذا سلّم الإنسان نفسه له يتزايد، لأن الفكر الردئ لا يقف عند حد.

ولك أن تتخيل كيف قابل عيسو يعقوب بالأحضان والبكاء والكرم والشهامة. وقد نسى الإساءة وغلَّب الحب والأخوَّة، وتبددت مخاوف يعقوب، وحسب كل ما عاناه من الهّم فى حساب الخسارة، وبقيت عنده بقية من ظل الخوف، فطلب من أخيه أن يرحل واعتذر له أنه يريد أن يسوق على مهل، لئلا يكد الأملاك، ثم إذ وصل لم يسكن فى كنعان بل عبر الأردن إلى سكوت ثم إلى شكيم.

بقى أن ندرك الفرق الهائل بين الهموم والاهتمام: فالاهتمام بالأمور يظهر الروح المسيحية فى العناية والتدبير، ويبرهن على الأمانة فى العمل الموكل به إلينا، لكى نعمله بدقة وأمانة واخلاص، وهو ضد التواكل والكسل واللامبالاة.

فالإنسان المسيحى السالك بالتدقيق هو كثير الاهتمام، كثير العمل، دقيق فى كل طرقه طالب أن يرضى الرب فى كل شئ، وبحسب مسئوليته التى من الله يتدبر الأمور بالحكمة.

أما أن (يعول) الإنسان الهم ويصير مهموماً، مضطرباً وخائفاً ومتشائماً من المستقبل.. فنجده دائماً قد فقد حتى الابتسامة والفرح.. ويُصاب بالكآبة ولا يتوقع الخير. وهذا كله ضد الإيمان وضد الرجاء بالرب وضد الاتكال عليه.

قال المرنم: «إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي» (مز ٢٣ : ٤)، وقال: «وَلَوِ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ... فَفِي ذلِكَ أَنَا مُطْمَئِنٌّ» (مز ٤٦ : ٢ ، ٢٧ : ٣). وقال عن الرجل الخائف الرب إنه «لاَ يَخْشَى مِنْ خَبَرِ سُوءٍ. قَلْبُهُ ثَابِتٌ مُتَّكِلاً عَلَى الرَّبِّ» (مز ١١٢ : ٧)، وقال: إن «الْمُتَوَكِّلُ عَلَى الرَّبِّ فَالرَّحْمَةُ تُحِيطُ بِهِ» (مز ٣٢ : ١٠).

يا أخى ضع كلمات الرب يسوع أمامك كل يوم.. يكفى اليوم.. يكفى أن نقدس اليوم ونعمل اليوم، قال الرب فى المثل: «يَا ابْنِي، اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي» (مت ٢٨ : ٢١).

وهذا المنهج الإلهى مريح للنفس، يطرد عنها الهموم، إذ تتسلم اليوم جديداً فى كل صباح تشكره وتعمل لحسابه على قدر المستطاع. أما الغد فهو مضمون بضمان إلهى أنه فى تدبير الرب الصالح،

الذى وهو مخبأ عنا ولكنه فى يد الآب، كمثل ما يخفى الأب يده عن الابن ويقول له: خمن ماذا فى يدى وماذا أخبئ لك. بكل تأكيد ما يخفيه الآب هو أفضل وأعظم مما نظن أو نفتكر.

أُدَرِّبُ نَفْسِي

يقول القديس يعقوب الرسول فى رسالته: «إِنَّ كُلَّ طَبْعٍ لِلْوُحُوشِ وَالطُّيُورِ وَالزَّحَّافَاتِ وَالْبَحْرِيَّاتِ يُذَلَّلُ، وَقَدْ تَذَلَّلَ لِلطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ» (٣ : ٧) وذلك عندما تكلم عن اللسان وكيف أنه لا يقدر «أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُذَلِّلَهُ».

فإن كان الأمر كذلك مع طباع الخلائق غير الناطقة فكيف يستقيم الأمر مع الإنسان الذى يفوق ويتفوق على الخليقة؟ والمتأمل يرى فعلاً أن الإنسان صاحب السلطان على الخليقة، قد أخضع ودرب وذلل طباع الوحوش والطيور وخلافه.. وبالتدريب والتمرين طوّع الطباع المتوحشة وصيّرها تخضع وتطيع.

والذى نراه فى هذا المجال فى العالم كله، يفوق حد التصور ويصل بالإنسان إلى العجب والدهشة: كيف يكون هذا؟! فأنت ترى فى السيرك كيف تدربت الأسود والنمور والأفيال وهى تقوم بالعروض المذهلة التى تخالف طباعها الشرسة والمفترسة.. كيف صارت مستأنسة هكذا؟ وأيضاً فى عالم البحار والكائنات البحرية كيف طوّع الإنسان هذه الكائنات وأصبحت تقدم عروضاً وألعاباً غاية فى الإعجاز.

هذا ما كتبه القديس يعقوب، وهذا ما نراه ونسمعه حولنا كل يوم وفى كل مكان.

+ نعود إذن إلى الطبع البشرى وما هو مزروع فينا من غرائز فى جسم بشريتنا، وما تربّى فينا من عادات وطباع، منها ما هو موروث، وما هو مكتسب من التعليم فى المدارس ومن أعراف المجتمع وعاداته وتقاليده. ونقول إن كثيراً من هذه الطباع يخص الطبيعة البشرية الساقطة، والذى نُعبّر عنه بإنساننا العتيق. فطباع مثل: الطمع والعنف والغضب والمراوغة والخبث وحب الذات والشراسة وعدم النزاهة وحب الانتقام والتشفّى. وباقى الطباع الردية التى يصعب حصرها.

والسؤال: هل هذه الطباع ممكن أن تتغير، وهل ممكن أن تُذلل. وهل من وسيلة لتدريبها؟

+ والحقيقة الإيمانية أننا حصلنا بالنعمة على الخليقة الجديدة «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧).. وهذه الخليقة والإنسان الجديد ليست فكراً ولكن فعل ولادة «مَوْلُودِينَ

ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى» (١بط ١ : ٢٣) والإنسان الجديد المولود من الله، قال عنه القديس يوحنا: « كُلُّ مَنْ هُوَ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ لاَ يَفْعَلُ خَطِيَّةً، لأَنَّ زَرْعَهُ (زرع الله) يَثْبُتُ فِيهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْطِئَ لأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ» (١يو ٣ : ٩).

وهذه الطبيعة الجديدة والميلاد الثانى والخليقة الجديدة لإنساننا الداخلى، بها صرنا أولاد الله. فالآن ندرك أننا بإنساننا الجديد وخلقتنا التى نلناها بالنعمة، وتجديد الروح القدس بولادتنا من الماء والروح، صرنا مخلوقين ثانية على شبه المسيح ومثاله كرأس الخليقة الجديدة. وأننا بحسب الجسد ورثنا الطبيعة البشرية بكل قصورها وعيوبها. وأصبح الأمر بالنسبة لنا واضح غاية الوضوح.. وهو إما أن يسلك الإنسان بروحه ووعيه المسيحى ويعيش بحسب الروح ويثمر لله ثمر الروح. وإما أن يسلك بحسب طبيعته البشرية، ويحيا بالجسد وللجسد وبحسب مفاهيم العالم «إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ» (رو ٨ : ١٣)، «مَنْ يَزْرَعُ لِجَسَدِهِ فَمِنَ الْجَسَدِ يَحْصُدُ فَسَادًا، وَمَنْ يَزْرَعُ لِلرُّوحِ فَمِنَ الرُّوحِ يَحْصُدُ حَيَاةً أَبَدِيَّةً» (غل ٦ : ٨). «وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زِنىً عَهَارَةٌ نَجَاسَةٌ دَعَارَةٌ... » (غل ٥ : ١٩ – ٢١)، «وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ» (غل ٥ : ٢١ ، ٢٢).

والصراع إذن قائم بين كياننا وإنساننا الجديد وطبيعة جسدنا العتيقة. والإنسان الروحى مدعو أن يعيش بالروح ويسلك بالروح.. وعليه إذن أن يدرب نفسه ويُخضع جسده بتداريب روحية. وكما قلنا سابقاً إن كانت طباع الوحوش تُذلل، فبالأولى يستطيع الإنسان بالنعمة أن يُدرب نفسه ويقمع شهواته ويضبط غرائزه، بل يستأسرها لعمل الخير والفضيلة والبذل والحب، ويستعمل جسده كآلات بر وصلاح.

على أننا نرى هذه الوحوش الكاسرة قد أُخضعت بالتدريب المتواصل والمستمر وبدون هوادة أو مهادنة.. وإلا إذا ما غُفل عن تدريبها عادت إلى طبعها الأول. فالحال إذن أن الطباع التى للوحوش لم تمت ولكنها تدربت لتكون على شكل أفضل، وقد اختفى منها ما هو وحشى ومخيف.

قال أحد الآباء فى هذا المجال – وهو يحيا حياة النسك الكثير والصوم المتواصل – : «نحن غير قاتلين أجسادنا بل قاتلين شهواتنا». فالأمر إذن يكمن فى المواظبة بدون إهمال لتدريب النفس وتهذيبها لتخضع للروح وتتعلم الخضوع والطاعة فيما تتدرب عليه. وأى غفلة أو إهمال فى التدريب

سرعان ما تظهر قبح الطبائع القديمة حتى لو كانت قد أُخضعت لسنين. «الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ » (غل ٥ : ٧).

+ الإنسان الطبيعى بدون المسيح خاضع عنوة لناموس الجسد ومستعبد، حتى إذا أراد أن يفعل الخير يجد الشر ماثلا أمامه، ويجد نفسه مغلوباً على أمره ويقول: «وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟» (رو ٧ : ٢٤).

أما فى المسيح فقد خلق فينا ناموس روح الحياة فى المسيح، وصار فينا روح الله يرشدنا ويهدينا إلى جميع الحق «وهُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ» (فى ٢ : ١٣). هذا الناموس الإلهى يثمر فينا ثمر الحياة الأبدية. فعمل النعمة يغلب كل عوار الطبيعة ويداوى جراحاته،ا ويجعل الإنسان يحيا حياة القيامة والنصرة والشكر للذى أعطانا الغلبة.

+ أما من جهة التدريب فهو يلذ لأولاد الله أن يُميتوا أعضائهم التى على الأرض ويقولوا مع الرسول: «أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ» (١كو ٩ : ٢٧) وأُدرب نفسى كل يوم لكى يكون لى ضمير صالح. وقد أتقن الآباء القديسون فى كل عصور الكنيسة فنون التأديب، عندما كبرت أرواحهم المؤازرة بنعمة الروح القدس وسيطرت على الحياة برمتها، فى الكلام والصمت معاً، والتصرف والسلوك فى المعاملات مع الناس، فى أعمال المحبة والاتضاع، وكل الفضائل المسيحية.

وبالصلاة المستديمة وتهذيب النفس بالصوم وأعمال التوبة، فى الحزن على الخطايا وتبكيت النفس حتى على الهفوات، والتدريب على ضبط النفس وضبط العين واللسان وجميع الحواس.

وكان إذ اتقنوا التدريب وواظبوا على السهر على خلاص النفس، أن تحلَّت حياتهم بأجمل الفضائل، وظهروا كأنهم أناس سماويون أو كأن طبيعتهم مختلفة وأخلاقهم وسلوكهم ليس من هذا العالم. والواقع أنهم كانوا كسائر البشر، ولكنهم اختلفوا جداً عندما أخضعوا إنسانهم الخارجى لأرواحهم، فصاروا بالتداريب وعمل النعمة فعلاً مختلفين.

والحياة الروحية ليست قصراً على من سكنوا الجبال والبرارى. ولا التداريب الروحية صارت وقفاً على النساك، بل هى حياة المسيحى أينما وُجد، وفى أى ظروف يعيش. وكل واحد على قدر طاقته.

وفى النهاية إذ يكون الإنسان تدرب «أَنْ يكُونَ مُكْتَفِيًا بِمَا فِيهِ.. يعْرِفُ أَنْ يجُوعَ، وَأَنْ يسْتَفْضِلَ، فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ قَدْ تَدَرَّب أَنْ يشْبَعَ وَأَنْ يجُوعَ، وَأَنْ يسْتَفْضِلَ وَأَنْ ينْقُصَ» (فى ٤ : ١١ ، ١٢)، يقدر بالنعمة أن يصرخ بصوت الغلبة: «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (فى ٤ : ١٣).

احتمى فيك وأستتر بسترك، واِجعل باب بيتك مفتوحاً أمامى ودعوتك للعرس قائمة فى وعيى مُتجددة كل يوم، فأسلك بحسب الدعوة التى دُعيت إليها. ولا أخيب من البلوغ إلى ملكوتك أنا وكل أخوتى أعضاء جسدك المدعوين إلى وليمتك الأبدية. آمين.

مثَل حبة الخردل

«وَقَالَ: بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ اللهِ؟ أَوْ بِأَيِّ مَثَل نُمَثِّلُهُ؟ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل، مَتَى زُرِعَتْ فِي الأَرْضِ فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُذُورِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ. وَلكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ الْبُقُولِ، وَتَصْنَعُ أَغْصَانًا كَبِيرَةً، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ السَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا» (مر ٤ : ٣٠ –٣٣).

~~~~~~~~~

هكذا يا مخلصى أعلنت سر ملكوتك فى كلمات بسيطة ليدركها أولادك البسطاء، فالأمر يا سيدى ليس فلسفة كلام، فملكوتك ليس كلاماً ولا خيالاً، بل هو حق كل الحق. وحبة الخردل الصغيرة تُلقيها أنت بذاتك فى القلب. ولكن فيها سر الحياة، سر الخلود. وأنا أؤمن يا سيدى أن زرعك الإلهى كائن فى داخلى. وقد نبهت رسك الأطهار قائلاً: «لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ... فَيَنْتَقِلُ» (مت ١٧ : ٢٠).

ليس الأمر يخص نقل الجبال، وإن كان هذا قد حصل فعلاً بقوتك فى ساعة ضيقة أولادك الذين وقع عليهم الاضطهاد.. ليس عسيراً عليك يا إلهى أن تنقل الجبال، فأنت خالق الجبال. لكن على ما يبدو لعبدك أنك توّجه ذهنى إلى أن الإيمان يقدر على المستحيل، لاسيما فيما يواجه عبدك من تجارب وحروب أو ما يبدو عائقاً أمام نمو عبدك.

فالإيمان بك يجعل الجبل سهلاً ويُزيل العوائق.. أتوسل إليك بحق حبك الحانى أن تجعل هذه البذرة تنمو فى قلبى.. فى أعماقى.

+ يا سيدى الرب.. ما أكثر ما شبَّهت ملكوتك ببذور النبات، تسقط على الأرض وتُدفن وتموت فيها، ثم تحيا، وتنبت، وتعطى أثمارها.. وفى الواقع فإن تعليمك يا مخلصى مُنصبّ دائماً على كون البذرة هذه تحوى سر الحياة الأرضية، فهى والحال كذلك تصير أصدق تعبير عن سر الحياة الدائمة الذى هو ملكوتك الأبدى.
~~~~~~~~~

إن سر الحياة الأرضية، لم يصل إليه علم العلماء، ولا فهم الفهماء بعد. إن كل ما يعرفه العلماء هو مظاهر الحياة. أما ماهية الحياة، فهذا أمر يفوق مستوى الإدراك البشرى، إذ أن الحياة مستمدة منك يا إلهى الحى الأبدى الأزلى، الذى يُدرَك ولا يُدرَك كماله، كما يقول أحد أولادك.

فمظاهر الحياة فى الكائن الحىّ مدركة بالحواس: كالتنفس، والحركة، والنمو والتكاثر والتغذية، إلى آخر هذه الظواهر التى لا تخطئها حواس الإنسان مهما كان بسيطاً فى إدراكه. وهذا ما يميز الكائن الحى من الميت. أما إدراك الحياة ذاتها، فكيف يُدرك غير المحسوس بالحواس؟

+ إن اختيارك يا سيدى فى هذا المثل، لِحّبة الخردل، ووصفها بأنها أصغر جميع البذور، ولكن فيها يكمن سر الحياة، فقط هيئ لها تربة صالحة، وتعهدها بسقى الماء، وأعطها وقتاً للنمو، ثم تأملها.. إنها أعجوبة وآية باهرة، حيث تصير أكبر من جميع البقول وتصنع أغصاناً كبيرة. وهذا هو صميم عملك فى امتداد ملكوتك.

والاعتبار الأول الذى تنبَّه ذهنى إليه فى هذا المثل، أن الحبة صغيرة متناهية فى الصغر، فهل من هذا الصغر يمكن أن تخرج شجرة كبيرة؟! إن ملكوتك يبدأ داخل القلب كبذرة صغيرة، كحبة خردل. وأن ملكوتك داخل العالم يبدأ كبذرة صغيرة كحبة خردل. ماذا كان الرسل بالنسبة لحقل العالم المتسع، المترامى الأطراف يا سيدى؟ لقد كانوا قلة صغيرة جداً، اثنى عشر تلميذاً، وسبعين رسولاً. ما هؤلاء بالنسبة لملايين البشر، هل تستطيع حبة الخردل هذه أن تنمو، أن تخرج أغصاناً، أن تصير شجرة كبيرة تأوى إليها طيور السماء؟

لقد حوت سر الحياة الأبدية، الحياة هى المسيح، لقد حمل التلاميذ سر حياة المسيح فيهم، وسر الحياة يتحدى كل معوقات الطبيعة وكل ظلمة الأرض وبرودتها المائتة.. أتوسل إليك أن تستودع قلبى سر الحياة هذه!

إمكانيات الرسل كانت ضئيلة، لا علم ولا معرفة علمية، ولا صيت ولا اسم، ولا مركز ولا سُمعة، ولا أموال، ولا مقتنيات، ولا كيس ولا مزود، ولا حتى عصا للطريق، ولا ثوبين.. حقاً كانوا كحبة خردل، صغيرة، صغيرة فى كل شئ. ولكن هذه الحبة، إذ روتها دماء الشهداء، وعرق النسَّاك، ودموع التائبين،

نمت بسرعة أذهلت العالم وصارت فروع أغصانها تظلل المسكونة، إذ تعهدتها يا واهب الحياة، إذ وضعت حياتك فيها واستودعتها روح الحياة، نبتت ونمت وأخرجت أغصانها.

ملكوتك يا إلهى، ليس بالقوة ولا بالقدرة، هو كخميرة صغيرة ولكن حية، هو قطيع صغير ولكن راعيه الحنون قائم يرعاه والآب سُرَّ أن يعطيه الملكوت.

لا أخاف إذا وجدت نفسى كحبة الخردل، صغير فى وسط العالم، أو فى وسط المجتمع، أو حتى فى وسط أهل بيتى.

إن الإنسان الأمين لإلهه يبدو كحبة خردل فى وسط بذور الشر المنتفخة والمتضخمة بالكذب. الشاب الطاهر يبدو كحبة خردل صغيرة فى وسط بذور النجاسة المنتشرة فى كل مكان. الشابة العفيفة تبدو كحبة الخردل الصغيرة فى مواجهة تيارات التسيب والانحلال.

اجعل روحك فى داخلى يطمئن قلبى.. إن سر الحياة فيك، فلا يستهين أحد بك، أنا قوى بحياة إلهى فيَّ، سر الدم الإلهى يسرى فى أعماقى، إنه سر الحياة التى لا تموت ولا يقوى عليها الموت.

لقد قلت لرسلك الأطهار، مشجعاً حياتهم فى الإيمان: «لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ... فَيَنْتَقِلُ».

إن حبة الخردل صلبة جداً، فى صغرها المتناهى. تحمل أيضاً صفات الإيمان الصلب الذى لا يلين، إيمان الأقباط نقل الجبل فعلاً، وهى معجزة لا ينساها الأقباط مهما مضى عليها من زمن، فهى حدثت فى أيام البابا أبرام بن زرعة، وحُكم المعز لدين الله الفاطمى، حدثت فى وضح النهار وقدام جماهير المصريين، انتقل الجبل وسار بقوة الإيمان، المشبَّه بحبة الخردل.. إيمان لم تنل منه التجارب ولا الاضطهادات، ولا شكوى عدو الخير.. بل زادته التجارب صلابة وقوة، وصقلته المحن والضيقات.. فهل تسند إيمانى بك وتوطد رجائى فيك.

ولكن هذه البذرة يا مخلصى، لابد أن تسقط فى الأرض وتموت، كقولك عن ذاتك وصليبك «إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ» (يو ١٢ : ٢٤).. هكذا قلته يا مخلصى الصالح عن موتك المحيى. لابد أن تعانى بذرة الملكوت فى القلب، ما

تعانيه البذرة، حبة الخردل فى تراب الأرض، لابد أن تصارع حتى الموت فى مواجهة عوامل الفناء والموت والتحلل.. تموت لتنمو، تُدفن لتقوم، تتحلل لتصير أعظم.. تفنى فى باطن الأرض لترتفع إلى السماء.. سر عجيب!!

والسؤال الذى يتبادر إلى ذهنى، من أين هذه الفروع العظيمة، الكبيرة؟ من تلك البذرة المتناهية فى الصغر. من أين أتت الحياة المزهرة التى للقديسين حتى صاروا عظماء ممجدين فى كل العالم؟ من حبة الخردل الصغيرة فى القلب، من بذل الحياة والفناء من أجل ملكوت الله. فلما كمُل البذل وإنكار الذات وحمل الصليب، أخرجت شجرة الملكوت أغصانها وصارت تملأ الدنيا كلها. وصارت حبة الخردل سبب راحة وخلاص لطيور السماء، صارت مسكناً لألوف، وعشاً تضع فيها أفراخها للإكثار وملجأ من السيل والحر، ووطناً للغريب.

متى يُستعلن ملكوت الله، ينمو ممتداً حتى يُظلل على الكثيرين؟ إن حبة الخردل تبدو بلا فائدة وبلا قيمة حتى تتحول إلى شجرة عظيمة. أى لا تصير لذاتها أو قائمة بذاتها بل تصبح وتعيش للآخرين.

علِّمنى الخروج من ذاتى وإنكار ذاتى، بل وبذل ذاتى. هكذا سيظل ملكوتك يا إلهى محصوراً فىَّ إلى أن يُستعلن خادماً للآخرين، يأوى إليه طيور السماء..

– أغصان حب ورحمة تظلل الضعفاء.. أغصان اتضاع ومسكنة تحمل الأثمار. ومن ثقل الأثمار تراها متجهة إلى أسفل..

– أغصان قداسة تفيح رائحتها، تملأ المسكونة من رائحة المسيح الزكية..أغصان زيتون الروح الجدد المتجددين، محيطين بمائدة المذبح.

– أغصان خشبة الصليب، وحمل الصليب، وحب الصليب..

أتوسل إليك أن تصير حبة الخردل التى ألقيتها فى أرضى.. فى قلبى، واستودعتها سر حياتك الخاصة، فصارت كائنة من أقاصى المسكونة إلى أقصاها. وها أنا أطلب فى الصلاة أن تحفظها بسلام.

+ قلت يا سيدى عن حبة الحنطة «إِنْ لَمْ تَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا».. إن قشرتها الصغيرة تجدها فى حجمها الصغير، فلابد أن تنحل هذه القشرة، وتتكسر وتفنى فى تراب الأرض، لتعطى فرصة للجنين الحى ليشق طريقه، مثل قشرة البيضة محيطة بالفرخ الحى، لابد أن تتهشم ليخرج هو إلى الحياة. القشرة الخارجية هى الذات التى أحرص عليها، والمظهر الخارجى، وحياة إنسانى الخارجى، إنسان الجسد والتراب.

إنكار الذات والتفريط فيها، وجحد مشيئتها وصلب الجسد مع الأعضاء.. و«مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ» (رو ٨ : ٣٦).. كل هذا تعبير عن خلع العتيق ليفسح مكاناً للجديد.

+ إن النمو والزيادة، هما قانون حياة الروح وملكوتك يا إلهى. فحبة الخردل، لا تبقى دوماً محجوزة داخل قشرتها الصغيرة، هذا مستحيل.. فما أن تبدأ رحلة نموها حتى تحطم كل مقاييس الصغر.

ملكوتك زيادة، لا تعرف النقصان، يفاجأ العالم بها وإذ هى شجرة كبيرة.. نمّينى فى النعمة، وفى معرفة ربى يسوع المسيح.. اجعلنى أنمو كل يوم، دع بذرة الملكوت تنمو داخل قلبى كل يوم.

+ الكنيسة هى ملكوتك يا إلهى على الأرض، وهى الملجأ والظل، ومكان الاحتماء «العُصْفورُ وجَدَ لهُ بَيْتاً واليَمامَةُ عُشّاً لِتضَعَ فيهِ أفْراخَها، مَذابِحكَ يا رَبُّ إلَه القُوّاتِ مَلِكى وإلَهى. طوبَى لِكلِّ السُّكانِ فى بَيْتِكَ» (مز ٨٣ أجبية).

الصليب صار كحبة الخردل، عندما زُرع فى الأرض، وارتوى بدم المسيح، صار شجرة أبدية، تحت ظله تشتهى النفوس أن تبيت وتستريح. وطيور السماء المُحلَّقة فى الروحيات لا تجد راحتها سوى فى الصليب يا إلهى.. كل من آوى إلى أغصان الصليب يكون قد دخل لكى يحتمى تحت جناحى المسيح.

والآن.. هل وصلت إلىَّ كلمة الملكوت؟ هل وجدت فى قلبى مكاناً تختبئ فيه؟ هل وجدت فيه رطوبة وليونة وسقى ماء الروح؟ هل وجدت أيضاً عمق أرض حتى تفسح لها مكاناً تعمل فيه جذورها لتتأصل؟

إن وجد كل هذا فكلمة الملكوت سوف يستعلن وجودها لا محالة. سوف تظهر أغصانها ويمتد الملكوت فىَّ وبى. ولكن أنا أعلم أن ساق النبات وأوراقه يظهر فى مرحلة أولى، بينما الأثمار هى آخر مراحله.

فأطلب إليك وأتوسل أن تتأصل فىَّ كلمة الملكوت، لكى أُثمر لك يا إلهى ومخلصى.

مَثَلُ البـذار

«وَقَالَ: هكَذَا مَلَكُوتُ اللهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلاً وَنَهَارًا، وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ، لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرَ، فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ» (مر ٤ : ٢٦ – ٢٩).

~~~~~~~~~

بذار ملكوت الله يُلقيها الإنسان – يسوع المسيح – ، هو الزارع الزرع الجيد، فى الأرض – التى هى الإنسان المأخوذ من تراب الأرض – وإذ تضرب البذرة الحيَّة، بذرة الحياة الأبدية، جذورها فى قلب الإنسان وتتمكن منه، تنمو، وتنمو كل يوم إلى حياة أبدية.

هذا النمو هو استمرار الحياة بروح المسيح، روح القيامة، وهو نمو مضطرد وتجديد مستمر. ولكن ما يؤكد عليه الرب أن النمو يبدو واضحاً جلياً كل يوم، ولكن كيف ينمو النبات هذا ما لا يمكن أن تسجله بالملاحظة، أنت تنام وتقوم والنبات ينمو من يوم إلى يوم، إنه سر الحياة.

كثيرون حاولوا رصد نمو الملكوت الأبدى فى حياتهم فى القلب والعقل، ففشلوا وصاروا فى سَجس الضمير، أو وصلوا إلى عقلانيات وتأويلات فلسفية ليس لها شبع.

النمو هو عمل الروح، وامتداد الروح، وانتشار الملكوت «مَنْ عَرَفَ (قاس) فِكْرَ الرَّبِّ؟ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟» (رو ١١ : ٣٤)، ليس بالكيل، «وَلاَ بِالْقُدْرَةِ وَلاَ بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (زك ٤ : ٦).

الإيمان ينمو، والمحبة تنمو، وروح الصلاح وعمل مسرة الله ينمو، الاتضاع ينمو، والرجاء ينمو. كل فضيلة تنمو.

كيف ينمو ملكوت الله؟

أعط مكاناً، خبئ بذار الملكوت فى القلب فلا تخطفها طيور السماء، تعهدها بالسهر وسقى الروح. أما من جهة كمال النمو وبلوغ الثمر، فيحتاج الأمر إلى الصبر. للزرع وقت وللحصاد وقت.
~~~~~~~~~

الزرع ينمو قليلاً قليلاً.. كقول الرسول: «انْمُوا فِي النِّعْمَةِ» (٢بط ٣ : ١٨)، وأيضاً «نَنْمُو فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ذَاكَ الَّذِي هُوَ الرَّأْسُ الْمَسِيحُ» (أف ٤ : ١٥)، وأيضاً تنمو «إِلَى قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أف ٤ : ١٣).

لذلك نقول إن عدم النمو فى حياتنا فى المسيح ينذر بالخطر. قال المرنم: «لِكُلِّ كَمَال (تمام) رَأَيْتُ حَدًّا (منتهى)، أَمَّا وَصِيَّتُكَ فَوَاسِعَةٌ جِدًّا» (مز ١١٩ : ٩٦). فأنت تبدأ فى تنفيذ الوصية وتنمو وتنمو ولا نهاية للنمو لأنك قاصد الحياة الأبدية التى لا نهاية لها.

تبتدئ بعمل المحبة وتحيا فيها، تحب الرب إلهك وتحب قريبك وتدرب نفسك كل يوم وتنمو فى المحبة وممارستها الفائقة. وكلما تقدمت تحسب ذاتك أنك لم تبلغ بعد إلى الكمال فتسعى و«تنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَتمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ» (فى ٣ : ١٣). هكذا كل وصايا الرب وجميع الفضائل المسيحية. إنها زرع ملكوت الله فى القلب.. تنمو وتمتد تكبر وتُكثر.

+ الساعين فى الطريق لا يستعجلون الثمر.. سيحصل فى حينه كقول الرسول: «لاَ نَفْشَلْ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ لأَنَّنَا سَنَحْصُدُ فِي وَقْتِهِ إِنْ كُنَّا لاَ نَكِلُّ» (غل ٦ : ٩).

نحتاج إلى صبر كثير حتى ينضج الإنسان من جهة معرفته بملكوت الله وإدراكه لمشيئة الله وتدبيره من جهة خلاصنا.

لذلك امتلأت سير الآباء القديسين بالصبر فى الجهادات والسهر والدموع وتكميل التوبة وأعمال النسك وكثرة الفضائل. وفى نهاية سيرتهم تكاثرت ثمار الملكوت كشهادة حية كقول الرب فى هذا المثل.

مثل وكيل الظـلم

«وَقَالَ أَيْضًا لِتَلاَمِيذِهِ: كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ، فَوُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يُبَذِّرُ أَمْوَالَهُ. فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: مَا هذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْكَ؟ أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَكُونَ وَكِيلاً بَعْدُ. فَقَالَ الْوَكِيلُ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا أَفْعَلُ؟ لأَنَّ سَيِّدِي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالَةَ. لَسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقُبَ، وَأَسْتَحِي أَنْ أَسْتَعْطِيَ. قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أَفْعَلُ، حَتَّى إِذَا عُزِلْتُ عَنِ الْوَكَالَةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ، وَقَالَ لِلأَوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ فَقَالَ: مِئَةُ بَثِّ زَيْتٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاجْلِسْ عَاجِلاً وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. ثُمَّ قَالَ لآخَرَ: وَأَنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرِّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ. فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ، لأَنَّ أَبْنَاءَ هذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ» (لو ١٦ : ١ – ٨).

~~~~~~~~~

يا إلهى الصالح، كُلَّىَ الخير، أنت إئتمنت عبدك ووكلته على أموالك، بل جعلت الإنسان وكيلاً على الخليقة كلها. وأخضعت كل شئ تحت قدميه.

فصار الإنسان بنعمتك وكيلاً لله.. لأنك يا مخلصى جبلتنى على مثالك وكتبت فىَّ صورة سلطانك.

فصار لى بك سلطان.. هو فى الواقع سلطانك أنت مالك الكل والمُنعم على الكل. وقد قسَّمت بحسب حكمتك وتدبيرك الإلهى لكل واحد ممن وكلتهم، حدود ما قسمته له، ليكون وكيلاً عليه.

فهل يا مخلصى تصرّفت (أنا) كما يُرضى ربوبيتك وصلاحك؟

وهل كنت أميناً كوكيل لك؟ لأنه «يُسْأَلُ فِي الْوُكَلاَءِ لِكَيْ يُوجَدَ الإِنْسَانُ (أن يكون الوكيل) أَمِينًا» (١كو ٤ : ٢).

الأمانة يا مخلصى هى الصفة الرئيسية التى يجب أن تتوفر فيمن يُختار للوكالة.. وبالأكثر إن كانت وكالة أسرارك الإلهية.
~~~~~~~~~

ألم يضع الروح بفم عبدك بولس شروطاً، هذا عددها للكاهن كم يجب أن يكون كوكيل لله؟ إن كان فى الإيمان، أو طهارة السيرة، أو الحلم، أو عدم محبة المال، أو البعد عن العنف، أو «أَنْ تَكُونَ لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ» (١تى ٣ : ١ – ٧).

هكذا يكون الوكيل المختار للوكالة لكى يؤتمن على خدمة قطيعك.. إنى أرتعب حين أتفكر فى جسامة الوكالة التى ائتمنت عليها كهنتك وخدامك!!

صار جسدك فى يد الكاهن كل يوم.. هو مؤتمن أن يوزعه لمن يكون له استحقاق!! وهذا يُرعبنى يا سيدى، إن كان الأمر معى يسير على غير ذلك من عدم التدقيق أو عدم التمييز.

وهل يستحق إنسان كائناً من كان أن يصير على هذه الوكالة.. لقد وكَّلت الكهنة على غفران الخطايا وقبول اعتراف الخطاة، لكى يغفروا الخطايا على الأرض وأنت بفمك الإلهى قلت: «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ» (يو ٢٠ : ٢٣).

مثل الغنى ولعازر

«كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأَرْجُوانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهًا. وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوبًا بِالْقُرُوحِ... » (لو ١٦ : ٢٠ – ٣١).

~~~~~~~~~

المثل صارخ بالمفارقات العجيبة سواء على الأرض أم فى السماء،

ففى الأرض شتان بين ذاك الذى عاش فى الجسد وللجسد ومسرات الجسد وغِنى المأكل والملبس، وما يتبع الغِنى من غرور وخطايا ونسيان تام للروح أو حاجات الروح، ونسيان كامل لحقيقة أن الحياة على الأرض لا تدوم وأن الأيام سريعاً ما تمر ويأتى الإنسان إلى النهاية المحتومة.

وبين الآخر، الفقير البائس المطروح عند الباب، بلا طعام ولا لباس، وجسده مضروب بالقروح، وليس له إنسان يُضمِّد جراحات الجسد أو النفس. وقد صار عادماً لكل شئ حتى ضروريات الجسد.

والمفارقة فى السماء أكثر وأشد: فالحياة فى الأحضان الأبوية حيث النعيم الدائم والفرح الذى لا يشوبه كدر. لا ألم ولا حزن ولا بكاء ولا تذكار للشر، بل تنعم وشبع أبدى بالرب ومجد لا يوصف. ولا توجد كلمات تُعبِّر عن الغبطة فى ذلك النعيم الدائم.

وعلى العكس فى مكان العذاب، حيث وجع القلب وعذاب الضمير وحيث «النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ والدُودُ الذى لاَ يَمُوتُ... هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ» (مر ٩ : ٤٤، لو ١٣ : ٢٨).

+ يا سيدى الرب.. أغنينى بغِنى كلمتك لأنها تُنير فى داخلى الطريق إلى الحياة الأبدية، وتكشف لى غوامض كثيرة فما يختص بحياتى الأبدية وميراثى فى السماء وحضن إبراهيم.. اجعلنى فى هذه أتفكر يا سيدى. وما كتبه الروح بموسى والأنبياء، اجعله فى داخلى يُهدينى إلى طريق الاستقامة. وبالأكثر كثيراً جداً ما عملته أنت يا إله موسى والأنبياء من جهة خلاص الأبرار، ومن جهة المساكين الذين سيُحرمون من مجد ملكوتك وراحتك.
~~~~~~~~~

لذلك أتوسل إليك يا سيدى أن تجعل كلماتك فى هذا المثل تقودنى لمزيد من النور الذى يرشدنى للحياة التى ترضيك فأبتعد عن كل ما يُفسد علىَّ الحياة فيك ومعك وبك.

أنت يا سيدى جعلت الحياتين أمام عينىَّ.. حياة الغِنى والترف ولبس الحرير وكل ما يختص بتدليل الجسد وراحته، ومن ناحية أخرى حياة المسكين المُعدم، صاحب الجسد المضروب بالقروح والمُلقى عادماً كل شئ وفى حالة العوز المُضنى والجوع والفاقة حتى ملء البطن من الفتات.

وعندما تنتهى أيام الأرض، وهى لابد أن تنتهى بهذا أو ذاك، فماذا يكون المصير يا سيدى؟

لقد استوفى الغنى خيراته على الأرض فلم يتبقَّ له خير ولا عزاء بعد. لقد طاب له عزاء الأرض والجسد فأسلم نفسه لمطالب الأرض وأفنى أيامه كلها فى الجسد. وانتهى به الجسد إلى التراب وأحدرته شهوات الجسد إلى الجحيم. قال إبراهيم خليلك عندما ناداه الغنى «يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ... فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ...اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ».. لقد طلبت راحة الأرض وفقط، فماذا لك بالراحة الأبدية؟! لقد كرهت أن تتعب فى الأرض، فها أنت تتعب فى السماء.. لقد كرهت الدموع على الأرض وسلَّمت نفسك للضحك والملذات، فها أنت تبكى حيث لا ينفع البكاء.

+ يا سيدى اِكشف عينىَّ فأرى قصدك الإلهى لأن كلامك يُنير الخفايا ويكشف الأسرار.. ماذا تقصد يا رب وماذا تريد أن تعلِّمنى فأتعلم؟

الغنى اللابس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً، هذه كانت حياته وكل سيرته.. اِنحصر فى الغِنى والترف والتنعم، ولبس الحرير والأكل والشرب.. كانت هذه هى سيرته.

دائرة مغلقة تدور حول الجسد وملذات الجسد ومسرات الدنيا. ولم تقُل يا سيدى ما يتبع هذه الحياة الجسدية من خطايا وانحراف لأن ما هو ثمر الجسد يا سيدى؟ أليس هذا هو قول رسولك: «لأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ» (رو ٨ : ١٣).

يا حُزنى يا سيدى.. فإن الانحصار فى الجسد والحياة به وفيه وحده قد صارت حياة كثيرين جداً.. كل الفكر وكل القلب والاهتمام صار للجسد. فأين مكانك أنت يا سيدى من الحياة؟!

+ أشكرك يا مخلصى الصالح لأنك أنرت أمامى الطريق بكلامك الحى المحيى ولأنك علَّمت عبدك وكشفت عينىَّ لأتبصر فى حياتى الأبدية. قلت يا سيدى عن الغنىّ إنه «اسْتَوْفَيْ خَيْرَاتُه فِي حَيَاتُه».. أنا أعلم يا سيدى أن الغِنى فى ذاته من أموال وأملاك ومقتنيات ليس خطية ، هذه نِعم تُغدقها بحسب مسرتك، إنما العيب يوجد فى انحراف الإرادة وانغماس الإنسان فى مسرات وشهوات الجسد.

+ من جهة موت الجسد فهو أمر محقق، فأى إنسان يحيا ولا يرى الموت؟ فإن كان غنياً أو فقيراً فعند الموت يتساوى كلاهما.

فالغنى مات ودُفن.. ولعازر مات وحملته الملائكة.. الغنى رفع عينيه وإذا هو مُعذَّب فى الجحيم.. ولعازر فتح عينيه وإذا هو يتنعم فى أحضان إبراهيم.

فالفرق واضح يا سيدى ولا وجه للمقارنة.. من جهة الخارج فتمييز الغنى عن الفقير المُعدم واضح، ومن جهة الداخل الذى لا يُرى، فالفرق بينهما كان أكثر مما يتصوره الإنسان. لقد فصلهما الغِنى فى الأرض وفرَّق بينهما، أما فى الروح فمصير أبدى مختلف صارا فيه على طرفى نقيض.

مَثَـل عُرس ابن الملك

«وَجَعَلَ يَسُوعُ يُكَلِّمُهُمْ أَيْضًا بِأَمْثَالٍ قَائِلًا: يُشْبِهُ مَلَكُوتُ ٱلسَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا صَنَعَ عُرْسًا لِٱبْنِهِ، وَأَرْسَلَ عَبِيدَهُ لِيَدْعُوا ٱلْمَدْعُوِّينَ إِلَى ٱلْعُرْسِ، فَلَمْ يُرِيدُوا أَنْ يَأْتُوا. فَأَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ قَائِلًا: قُولُوا لِلْمَدْعُوِّينَ: هُوَذَا غَدَائِي أَعْدَدْتُهُ. ثِيرَانِي وَمُسَمَّنَاتِي قَدْ ذُبِحَتْ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ. تَعَالَوْا إِلَى ٱلْعُرْسِ! وَلَكِنَّهُمْ تَهَاوَنُوا وَمَضَوْا، وَاحِدٌ إِلَى حَقْلِهِ، وَآخَرُ إِلَى تِجَارَتِهِ، وَٱلْبَاقُونَ أَمْسَكُوا عَبِيدَهُ وَشَتَمُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ. فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْمَلِكُ غَضِبَ، وَأَرْسَلَ جُنُودَهُ وَأَهْلَكَ أُولَئِكَ ٱلْقَاتِلِينَ وَأَحْرَقَ مَدِينَتَهُمْ. ثُمَّ قَالَ لِعَبِيدِهِ: أَمَّا ٱلْعُرْسُ فَمُسْتَعَدٌّ، وَأَمَّا ٱلْمَدْعُوُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَحِقِّينَ. فَٱذْهَبُوا إِلَى مَفَارِقِ ٱلطُّرُقِ، وَكُلُّ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ فَٱدْعُوهُ إِلَى ٱلْعُرْسِ. فَخَرَجَ أُولَئِكَ ٱلْعَبِيدُ إِلَى ٱلطُّرُقِ، وَجَمَعُوا كُلَّ ٱلَّذِينَ وَجَدُوهُمْ أَشْرَارًا وَصَالِحِينَ. فَٱمْتَلَأَ ٱلْعُرْسُ مِنَ ٱلْمُتَّكِئِينَ. فَلَمَّا دَخَلَ ٱلْمَلِكُ لِيَنْظُرَ ٱلْمُتَّكِئِينَ، رَأَى هُنَاكَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لَابِسًا لِبَاسَ ٱلْعُرْسِ. فَقَالَ لَهُ: يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ ٱلْعُرْسِ؟ فَسَكَتَ. حِينَئِذٍ قَالَ ٱلْمَلِكُ لِلْخُدَّامِ: ٱرْبُطُوا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَخُذُوهُ وَٱطْرَحُوهُ فِي ٱلظُّلْمَةِ ٱلْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ ٱلْبُكَاءُ وَصَرِيرُ ٱلْأَسْنَانِ. لِأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ» (مت ٢٢ : ١ – ١٤).

~~~~~~~~~

ملكوتك يا إلهى الذى أعددته لمختاريك ودعوت إليه أحباءك، هو عُرس حقيقى وفرح لا يُنطق به. هو حفل أبدى، حيث العريس الحقيقى هو ابن الآب، بالحق والمحبة.. حين تزف عروسك الحقيقية التى اقتنيتها لنفسك وبذلت ذاتك لأجلها.. أورشليم السمائية كما رآها عبدك يوحنا «نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا (للعريس السماوى)» (رؤ ٢١ : ٢).

ما أبهاه من فرح.. ما لا يخطر على بال الناس.. فرح لا يُعبَّر عنه بلغة بشرية.

أنت قدست كل شئ، وهيأت الكل قبل كون العالم لنعيم أولادك وشركة الحياة الأبدية.. وأرسلت عبيدك الأنبياء ينادون المدعوين كى يلبّوا دعوة حبك يا سيدى.

يا حسرتى، حينما أسمع أن البعض توانى عن الدعوة التى دُعى إليها، يجوز فى نفسى شعور بالأسى كلما أتذكر التوانى والكسل والإهمال وعدم المبالاة بدعوة حبك وشركة أسرار فرحك.
~~~~~~~~~

ماذا كان يدور فى خُلدى فى تلك الأوقات؟.. أهو عدم إدراك حقيقى للدعوة؟..أم هو انشغال بالباطل؟.. أم هى أعذار واهية بلا مبرر؟.. أم هى طبيعتى الترابية متمسكة بالأرضيات غير ناظرة إلى فوق؟!!

حين أفكر فيمن اعتذر بأنه اشترى بقراً، وهو ماض ليمتحنها بعد أن اشتراها، أو من ارتبط بزواج جسدانى فكبَّله برباط الجسد، لا يقدر أن يتحلل منه أو يتحرك إلى السماويات، إلى فوق.

كلما جال بخاطرى هؤلاء وأولئك أرجع إلى نفسى الشقية التى كثيراً ما كان هذا هو حالها.. الآن يا سيدى كلمات هذا المثل توقظ ضميرى وتعيد إلى سمعى نداء قديسيك "هلموا إلى العرس".

نعم يا سيدى.. «الرُّوحُ وَالْعَرُوسُ (الكنيسة) يَقُولاَنِ: تَعَالَ» (رؤ ٢٢ : ١٧).. أحضانك فتحتها على الصليب للقبول بالمحبة الأبدية.. من يدخل إليك يدخل إلى الفرح الأبدى.. صليبك هو ذبيحة الحب، والعشاء فى السماء هو «عَشَاءِ الْخَرُوفِ الْقَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ... لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَنَا للهِ» أبيك وأقمتنا فيك (رؤ ٥ : ٦، ٩ و ١٩ : ٩).

أتوسل إليك يا سيدى.. ألا تحرم نفسى من دسم مائدة فرحك التى أخذت عربونها هنا على الأرض باشتراكى فى ذبيحة القداس إلى أن يكمل الفرح بالدخول الحقيقى إلى السماويات عينها.

+ لا يعرف هذا الفرح إلا الذى يدخل إليه يا سيدى، حين يسمع صوتك الإلهى يقول له شخصياً: «اُدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ» (مت ٢٥ : ٢٣).

أدخلنى إلى الفرح، وعزِّى نفسى فى غربة هذا العالم التى يشوبها الكدر دائماً.. أدخلنى إلى داخل ولا تطرحنى خارجاً.. أدخلنى كدخول العذارى إلى الخدر السمائى حيث عريس نفسى.

خارجاً ظلمة ومرارة نفس.. بكاء وصرير أسنان..

دعنى أحتمى فيك يا سيدى.. وحين تضمنى ذراعيك أكون داخل الفرح الحقيقى وأمان وسلام النفس.

+ الذين حرموا أنفسهم من حبك، وفرح بيتك، بانحراف إرادتهم، كمن رفضوك ملكاً عليهم. وأهانوا رسلك واحتقروا كلمات دعوة حبك.. هؤلاء قال الملك إنهم غير مستحقين ولا مستأهلين للكرامة.. فأحرق مدينتهم وحكم عليهم بحسب عدله أنهم لا يذوقون عشاءه ولا يرون مجد الفرح بل صار نصيبهم فى الخزى، إذ جلبوه على أنفسهم جزاء انحراف إرادتهم.

+ أما العرس فمُعدّ وأما المدعوين فلم يكونوا مستحقين.. والآن ماذا يا سيدى.. إن قلبى وعقلى يتوه حين أسمع أمرك لعبيدك أن ينادوا مناداة الكرم الإلهى للذين فى الطرقات عابرى السبيل، بل وللذين قضوا العمر عند الأسوار (السياجات)، كمن ليس لهم أحد يذكرهم أو يعتبرهم.. هؤلاء وأولئك لم يكن لهم اعتبار، ولا اسم، ولا مركز، ولاشكل ولا قيمة.. وأين هم من دعوة ملك الملوك وحفل عرس ابنه الحبيب؟

هؤلاء المساكين انفتحت أمامهم أبواب السماء فجأة وبلا مقدمات، وبلغتهم البشارة المفرحة الفائقة للعقل.. هلموا إلى العرس.

إن عبدك المسكين يا سيدى، هو أحد هؤلاء.. الدعوة لا يصدقها العقل.. أنا! أنا مدعو إلى العرس السمائى؟ هل هذا يُصدّق؟!

نعم يا سيدى الرب، أنا أعرف أن وعودك هى بلا ندامة.. اِجعل فى قلبى وعقلى ثقة فى كلمتك وصدق لمواعيدك ودعوتك.. أنا فعلاً بنعمتك مدعو إلى العرس الأبدى.. أنا غير مستحق ولا مستأهل.. من أنا حتى أجلس إلى مائدة الملك؟!.. عندما تغمرنى بلطفك ولُجج حبك تتدفق بسخاء النعم العجيبة، أشعر بحقارة نفسى بالأكثر.

يا سيدى الرب.. إذا دُعى إنسان من عامة الشعب إلى مجالسة ملك أرضى أو رئيس من رؤساء العالم، فإن الدنيا كلها تتحدث عن هذا الأمر الفائق.. فكم إذا دُعى «الْمَسَاكِينَ، الْجُدْعَ، الْعُرْجَ، الْعُمْيَ» (لو ١٤ : ١٣) بحسب مقياس الروح. والمعتبرون أنهم عادمو كل خير وكل صلاح.. أخطى الخطاة.. يُدعَوْن إلى ميراثك الأبدى وفرح عرس السماء؟

ثبِّت دعوتك وسمِّرها فى أعماقى لكى أسلك بحسب دعوتك، إلى أن أبلغ أعتاب السماء يا سيدى الرب.

+ قلت يا مخلصى إن الملك لما دخل وجد «إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لَابِسًا لِبَاسَ ٱلْعُرْسِ. فَقَالَ لَهُ: يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ ٱلْعُرْسِ؟».. فناله ما ناله من خزى، وطرحه الخدام خارجاً.

أنا أعلم يا مخلصى أن كَوْن دعوتك إلى العرس هى نعمة مجانية، ولكنها ليست رخيصة، هى تُعطى مجاناً لأن لا أحد يستطيع أن يشتريها «بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ (سيرة الناس) الْبَاطِلَةِ» (١بط ١ : ١٨).

دمك الغالى، هو الذى اقتنى لى الملكوت.. وصليبك المحيى، هو الدعوة بعينها.. فمن دُعى إلى عرسك الأبدى واستحق هذا النصيب الصالح لابد أن يسلك بحسب قانون بيتك وعرس مجدك وما يليق.. لأنه «بِبَيْتِكَ تَلِيقُ الْقَدَاسَةُ» (مز ٩٣ : ٥).. كيف «يَرِثُ الْفَسَادُ (الفاسد) عَدَمَ الْفَسَادِ» (١كو ١٥ : ٥٠)؟ وكيف يدخل اللباس البالى القديم إلى حفل عرس ابن الله؟.

الحلة الأولى، حلة الفرح ألبستها لى يا مخلصى بيديك يوم معموديتى.. هذا هو الثوب الناصع البياض المغسول فى دم الخروف.

+ مسكين هذا الذى أبقى على اللباس البالى والطبيعة الساقطة مع أعمالها، وعاش بحسب شهوات الجسد ونجاسات الطبيعة وظن أنه يبقى فى العرس. ومسكين من تمسك بذاته وإرادته الخاصة وعمل مشيئته دون مشيئة الله. وسلك برأيه دون وصايا مخلصه. وظن أنه وارث الملكوت ومدعو للوجود فى العرس الأبدى.

يا سيدى الرب.. عرِّينى من العتيق وألبسنى حلة الخلاص كل يوم.. يا رب دعنى أخضع خضوعاً كلياً لكل وصية وكل ترتيب توعز به إلىَّ كنيستك وخدام بيتك والداعين إلى عرس مجدك.. فأطيع وأستلهم كل ما هو لائق ونافع لخلاص نفسى.

يا سيدى.. اجعلنى أعتبر أن من لا يوجد فى كمال هيئة المستحقين للعرس يُطرد خارجاً.. يا إلهى أنا أرى فى كنيستك عربون العرس السماوى.. فهى الفرح والمسرة الروحية والشبع من دسم بيتك.. لذلك فالتناول من جسدك ودمك الأقدسين هما الغاية التى ترنو إليها نفسى.. وأن أسلك بحسب ما تعلمنى الكنيسة، ويؤهلنى للتناول من ذبيحة العرس، لا أسلك بحسب هواى أو أصنع ما استحسنه أنا بل بحسب قانون الكنيسة وترتيب الآباء معلمى البيعة أخضع وأسير.

+ علمنى أن أحترم بكل قلبى وأُخضع نفسى للتدبير الإلهى، إن كان فى صوم أو صلاة أو طقس أو عيد أو لحن، أو كل مايختص بنظام بيعتك. لا أنسى يا سيدى ما نال عُزَّة أحد أبطال داود حين أقحم نفسه فى عمل ما لا يخصه، إذ حاول أن يلمس تابوت العهد الأمر الذى كان موكلاً لبنى لاوى فقط (٢صم ٦ : ١ – ٩). وهذا يعلمنى أنه يجب أن أسلك بحسب التدبير لا بسبب رأيي الشخصى أو ما أراه أو ما يعجبنى مستهيناً بالتدبير.

بكل تأكيد يا مخلصى، فإن هذا الشخص الذى لم يلبس لباس العرس كان يسلك بذاته. ويُخيَّل إلىَّ أن خدامك وحرَّاس أسرارك والداعين كل أحد إلى العرس.. يُخيَّل إلىَّ أنهم قالوا له إنه يجب عليه أن يخلع ثيابه ويلبس ثياب العرس.. ويُخيَّل إلىَّ يا مخلصى إنهم نبهوه مراراً ونصحوه كثيراً، ولكنه لم يأبه للنصائح ولا خضع لما قيل له.. بل ألقى الكلام خلفه ولم يعط أذناً صاغية ولا أذعن لوصية، بل أصرَّ على أن يسير على هواه ويعمل ما بدا له..

فاصنع مع عبدك رحمة وجنبنى هذا السلوك المشين.. واجعلنى أتمسك بثياب العرس وأحفظها، بل إذا حدث بسبب إهمالى وكسلى وعدم حرصى، أن اِتسخت الثياب أو أصابها تلف بسبب ميلى إلى العالم وما فيه، فأعط عبدك توبة صادقة ورجوع من القلب لكى أغسل ثيابى مجدداً مراراً وتكراراً وأبيّضها فى ينبوع دم الصليب، فتبدو جديدة لائقة بلا دنس ولا عيب..

وإن أحسست أننى فقدت ثيابى وصرت فى خزى العرى فاسمعنى صوتك القائل: «أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لِكَيْ تَسْتَغْنِيَ، وَثِيَابًا بِيضًا لِكَيْ تَلْبَسَ، فَلاَ يَظْهَرُ خِزْيُ عُرْيَتِكَ. وَكَحِّلْ عَيْنَيْكَ بِكُحْلٍ لِكَيْ تُبْصِرَ» (رؤ ٣ : ١٨).. فأسعى أن أقتنى لى عمراً نقياً بالتوبة وأستتر بسترك، يا من سترت عراء أبونا آدم فى الفردوس.

اِحسبنى أهلاً للوقوف أمامك بلا خجل، وإن لم أكن مستحقاً لشئ كعبد كسلان، ولكن اجعلنى احتمى فيك واستتر بسترك واِجعل باب بيتك مفتوحاً أمامى ودعوتك للعرس قائمة فى وعيى مُتجددة كل يوم، فأسلك بحسب الدعوة التى دُعيت إليها. ولا أخيب من البلوغ إلى ملكوتك أنا وكل أخوتى أعضاء جسدك المدعوين إلى وليمتك الأبدية. آمين.